مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (25) العدد (18)2003
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research- Arts and Humanities Science Series Vol (25) No (18) 2003

الحنين إلى الأحبّة في شعر صدر الإسلام

الدكتور عبد الكريم يعقوب*
وهران حبيب**

(قبل للنشر في 2003/11/23)

□ الملخّص □

عرف الشاعر في صدر الإسلام الحب، فتكبد مشقة الفراق وألم الاغتراب عن المحبوبات والزوجات وجسد أنبل العواطف الوجدانية وأصدق المشاعر الإنسانية بعفوية وبساطة، تنمان على عفة التجربة ورهافة الإحساس.

وتتقصى هذه الدراسة الأشعار التي أنشدت في الحنين إلى الأحبّة في شعر صدر الإسلام، وتحللها في ظل الحالات النفسية، والظروف التاريخية، والاجتماعية، التي خلقت الإحساس بالغربة، لدى فئة من الشعراء في هذا العصر، وتحاول إبراز المشاعر والأحاسيس التي تولدت من الفقد، والتي عبر عنها الشعراء في أبيات الحنين وقصائده.

ففي ظل بعض الظروف الاجتماعية القاسية، يحرم بعض الشعراء نعيم التواصل مع المحبوبات، فيبثون أشواقهم آهاتٍ مفعمة بالشكوى والأنين. ومن الاغتراب في البلاد المفتوحة، والسجون، تتدفق عواطف بعض الشعراء حيال محبوباتهم في الوطن، فينفثونها زفرات مرة نابعة من ألم الفراق والغربة. وتحت وطأة الظروف الصعبة، يتسرع بعض الشعراء في تطليق زوجاتهم، لكن جذوة الحنين المتقدة في الصدور تحرك فيهم حسرات الندم، وتحفزهم على إرجاع زوجاتهم.

ووجد بعض الشعراء في المرأة أنموذجاً فنياً يتسع للإيحاء بالمشاعر والأحاسيس، فكانت رمزاً لجملة من المفتقدات افتقدها الشاعر في صدر الإسلام، وعبر عن حاجته إليها في صور رمزية إيحائية تجلت فيها قدرته على توظيف الموروث الشعري لتصوير المواقف، والعواطف، ونقل الأفكار.

[U] أستاذ في قسم اللغة العربية، من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بجامعة تشرين، اللاذقية، سورية.
[a]* طالبة دكتوراه في قسم اللغة العربية، من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بجامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (25) العدد (18)2003
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research- Arts and Humanities Science Series Vol (25) No (18) 2003

The Longing for Lovers in the Poetry of The Prime of Islam

Dr. Abdul- karim Ya'akoub[ø]
Wahran Habib[øø]

(Accepted 23/11/2003)

□ ABSTRACT □

A poet knew love in the prime of Islam, so he endured the hardship of farewell and the pain of emigration from lovers and wives embodying the noblest affective passions and the most faithful human feelings in a simple, spontaneous way indicating purity of experience and delicacy of sensation.

These studies investigate verses which were chanted for the purpose of longing for lovers in the duration of the psychological states and social, historical circumstances that created the feeling of estrangement for a group of poets in this age trying to bring out the feelings and sensations that were brought out of loss which the poets expressed in verses and poems of longing.

In the meantime of some social, hard circumstances, some poets are deprived of the pleasure of contact with lovers; therefore, they propagate their yearning as groans full of complaint and moan. And out of emigration in open countries, the poets' passions towards their lovers at home flow out, so they discharge them as bitter sighs welled out from the pain of farewell and estrangement. Some poets - under the pressure of hard circumstances – hasten to divorce their wives, but the ember of longing which is blazed in chests move sorrows of remorse upon them stimulating them to come back to their wives.

Some poets found in the woman an artistic pattern that accommodated inspiration to feelings and sensations. Therefore, she was a symbol for a group of losses the poet had lost in the prime of Islam and expressed his need to her in the form of suggestive, symbolic images in which he revealed his capacity to employ the poetic heritage for portraying situations and passions and for transporting ideas.

[ø] Professor at Arabic Department, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.
[øø] Doctorate's student at Arabic Department, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.

مقدّمة:

تنبثق أهمية هذه الدراسة من كونها تعالج موضوعاً وجدانياً، في فترة زمنية شهد فيها المجتمع العربي تطورات جذرية قلبت المبادئ والمفاهيم، وغيرت نظم الحياة العربية. فالدراسات الأدبية تتجه في مجملها إلى استقصاء الموضوعات الشعرية التي تمخضت عن طبيعة الدعوة الإسلامية، وظروفها، ومستجداتها، وتغفل في كثير من الأحيان موضوع الحنين إلى الأحبة بوصفه تجربة ذاتية خاضها الشاعر، بمعزل عن الأحداث والتطورات، وتكتفي بعض الدراسات الأخر بذكر قصص الحب العذري وإيراد سمات فن الغزل، **ومن هذه الدراسات:** الحب العذري لأحمد عبد الستار الحواري، وتطور الغزل بين الجاهلية والإسلام للدكتور شكري فيصل، والغزل عند العرب لفاديه. بينما تمزج بعض الدراسات بين الحنين إلى الوطن والحنين إلى الأحبّة، على نحو ما نجد في: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام للنعمان القاضي، والحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي لمحمد إبراهيم حوّر.

وترمي الدراسة إلى استقراء ظاهرة الحنين إلى الأحبّة في شعر صدر الإسلام، في ظل الظروف الذاتية والموضوعية التي فرقت بين الشاعر وأحبته، فعمقت إحساسه بالفقد، وضاعفت شعوره بقسوة الزمان، فتستقصي قصص الحب العذري وأشعاره، وتدرس نماذج من حنين بعض الشعراء المغتربين إلى الأحبة في الوطن، ثم تعكف على كتب الأدب والأخبار، تتقصى فيها حنين بعض الشعراء إلى الزوجات المطلقات، وتتعمق الدراسة في قراءة بعض النصوص الشعرية، تستكشف فيها المعاني والمشاعر في هدي من الحس والذوق، وتستوضح قدرة الشاعر على الإفادة من الموروث الشعري.

الدراسة:

شغل الحنين إلى الأحبّة حيزاً واسعاً من شعر صدر الإسلام، فهو موقف شعوري صادق، تغذية التجربة بالألم، وترفده المعاناة برقة المشاعر ورهافتها، فيفيض على لسان الشاعر قصائد ومقطوعات عذبة، تنم على شفافية الإحساس، وزخم العواطف المتقدة في صدره.

فقد عاش الشاعر في صدر الإسلام – كالشاعر الجاهلي – تجربة الحب العفيف فتحمل عذابات الفراق، ولوّع بفقد المحبوبة وكيد العواذل، وتحرق لهفة إلى مجلس يجمعه بالمعشوقة، أو قبر يضم جسديهما، لعل في الأماني ما يخفف داء الوجد والحنين.

وها نحن نمضي مع بعض ما تنقله لنا كتب الأدب والأخبار، من قصص الحب العفيف، في صدر الإسلام، فنعيش مع الشاعر تجربته العفوية الصادقة، ونستشف مرارة الحرمان التي نكدت عيشه، وأرقت ليله فصاغها شعراً تهتز له المشاعر وترق الأفئدة؛ فهذا مالك بن الصّمصامة الجَعْدي يهوى جنوب بنت محصن الجعدية، وتجتازبه مع أخيها، فيغمى عليه، وحين يفيق ينطق بأبيات رقيقة تفيض بالحنين إلى المحبوبة والرغبة في طلب ودادها:[1]

ألمّتْ، وما حيّت، وعاجتْ، فأسرعت ... إلى جرعةٍ بين المخارم فالنخرِ
خليليَّ إن حانت وفاتيَ، فاحفرا ... برابيةٍ بين المحاضر فالبُتْرِ
لكيما تقول العبد ليَّة كلما ... رأت جدثي حُيِّيتَ يا قبرُ من قبرِ

فتتابع الأفعال (ألمت، حيت، عاجت، فأسرعت) يشير إلى لحظة الفراق الخاطفة التي حرمت الشاعر بهجة النظر إلى المحبوبة، ويوحي بما في نفسه من لهفة إلى رؤيتها، لكن اليأس من التواصل في الحياة الدنيا يحمله إلى تمني التلاقي في الموت، فنراه يلتمس من صاحبيه أن يقبراه في المكان (بين المحاضر فالبتر)، فلعله يحظى بتحية المحبوبة (حييت يا قبر من قبر)، ويشفي ما به من داء الوجد والحرمان.

ومن أشهر قصص الحب العذري في صدر الإسلام قصة عُروة بن حِزام مع ابنة عمه عفراء، تكبد فيها الشاعر مشقة فقد الحبيبة، ولوع بغدر العم الذي زوّج البنت ممن هو أوفر مالاً من عروة، فتسبب في صدع قلب الشاعر بنيران الحرمان وأسى الاغتراب، وفي قصائده تتأجج نيران الحنين حسرة على المحبوبة، فينفث أشواقه آهاتٍ حرّى، يشكو فيها غدر العم، ويؤكد لهفته إلى الاجتماع بالمحبوبة، يقول:[2]

تحــنُّ فتُبــدي مــا بهــا مــن صَــبابةٍ ... وأُخفــي الــذي لــولا الأســى لقضــاني
هــوى نــاقتي خلفــي وقــدَّاميَ الهــوى ... وإنــي وإيّاهــا لمختلفــانِ
يقــول لــي الأصــحابُ إذ يعــذلونني ... أشــوقٌ عراقــيٌّ وأنــت يمــانِ
ولــيس يمــانٍ للعراقــي بصــاحبٍ ... عســى فــي صــروف الــدهر يلتقيــانِ
جعلــت لعــرّافِ اليمامــةِ حكمَــهُ ... وعــرافِ حجْــرٍ إن همــا شــفَيَاني
فقــالا شــفاك اللهُ واللهِ مــا لَنَــا ... بمــا ضُــمِّنت منــك الضُّــلوعُ يــدانِ
فيــا عــمِّ يــا ذا الغــدر لا زلــت مُبتلــى ... حليفــاً لهــمٍّ لازمٍ وهــوانِ
وإنــي لأهــوى الحشــرَ إذ قيــلَ إنّنــي ... وعفــراءَ يــوم الحشــرِ ملتقيــانِ
فيــا ليــت مَحْيانــا جميعــاً وليتَنــا ... إذا نحــن متُنــا ضــمَّنا كفنــانِ
ويــا ليــت أنَّــا الــدَّهر فــي غيــر ريبــةٍ ... بعيــران نرعــى القفــر مؤتلفــانِ
يُطَرِّدنــا الرّعيــان عــن كــلِّ منهــلٍ ... يقولــون بكــرا عُــزَّةٍ جربــانِ
تحمّلــتُ زفــراتِ الضــحى فأطقتهــا ... ومــالي بزفــراتِ العشــيِّ يــدانِ

فالأبيات تمثل قصة عاطفية يسرد فيها عروة معاناته، ويفصح عن أشواقه المفعمة بالحسرات، ويبدو الشاعر في مطلع الأبيات متحداً مع ناقته في حالةٍ شعورية واحدة، فكلاهما يحن إلىٍ المحبوبة، لكنْ ثمة تناقض بينهما يتمثل في اختلاف النية والقصد، فشوق عروة متجه نحو بلاد عفراء، بينما تميل الناقة بحنينها إلى اليمن حيث موطنها،وحيث الرحلة في سبيل تحصيل المهر الغالي الذي فرضه عمه من أجل تزويج ابنته، هكذا يعيش الشاعر حنيناً جارفاً يجذبه إلى المحبوبة، وهو يدير الحوار على لسان الأصحاب، ويوظف استنكارهم شغفه العراقي في الإيحاء بالعوائق التي تحجبه عن تحقيق غايته (وليس يمان للعراقي بصاحب).

هكذا يخفق عروة في الظفر بعفراء، فيسقمه الحب، وينهك صحته، ويعجز العرافان عن مداواته، وهو يطور الحوار على لسانيهما، فيصعد الموقف الدرامي، ويعمق إحساسه باليأس من الشفاء (والله ما لنا بما ضمنت منك الضلوع يدان)، ونراه يتوجه إلى عمه باللوم، فينعته بالخيانة والغدر، ويشنع فعله في التفريق بينه وبين من يحب، ويسمح لعواطفه المتقدة أن تنساب أماني مستحيلة يعلم أنها بعيدة المنال، ولكنه يرغب في إشباع حنينه فيستعجل الموت، ويستعذب الحشر إن كان يجمعه بعفراء، فيتمنى لو أنهما يعيشان معاً ويموتان معاً، بل يشطح خياله إلى ما هو أبعد، فيتمنى لو أنهما بعيران أجربان في قفر، يطردهما الرعيان، فيبقيان معاً، ويجسد من خلال

أمانيه تلك رغبته الجامحة في ملازمة الحبيبة، كيفما كانت ظروف تلاقيهما. ويطلق في البيت الأخير زفرات حبه أنيناً موجعاً، يحكي معاناته بصدق.

وحين يموت عروة تضيق عفراء بحبس مشاعر الحنين إليه، فتزور قبره، تندب فعل الوشاة والعواذل في التفريق بينهما، وتُظهرُ حزنها حسرات من التفجع، تقول:[3]

عـــــداني أن أزورَكَ يـــــا مُـــــرادي ... معاشـــــرُ كلهـــــم واشٍ حســـــودُ
أذاعـــوا مـــا علمـــتَ مـــن الـــدواهي ... وعابونـــــا ومـــــا فـــــيهم رشـــــيدُ
فأمّـــــا إذ حللْـــــتَ بـــــبطن أرض ... وقصـــــرُ النَـــــاس كلُّهـــــم اللحـــــودُ
فـــــلا بقيـــــتْ لـــــي الـــــدنيا فُوَاقـــــاً ... ولا لهـــــــمُ ولا أَثـــــــري عديـــــــدُ

فالنداء (يا مرادي) إفصاح عن رغبتها في الظفر بوداد الشاعر، فقد كانت عفراء تكن له من الحب ما يكنه لها، ولكن أقاويل الوشاة والحساد، نشرت قصة حبهما، وشهّرت بسمعتهما، فحرمتهما الارتباط الزوجي وهاهي ذي تستعذب الموت بعده، وتكره البقاء وحيدة دونه، معبرة عن أسى الاغتراب عن المحبوب، وحرقة الوجد التي تكابدها.

وثمة أشعار عفيفة حركت مشاعر بعض الخلفاء، وحفزتهم على الشفاعة والتوفيق بين المحبين، فأكدوا بذلك حرص الإسلام على تهذيب العواطف والارتقاء بها إلى مستوى العلاقات الإنسانية المشروعة؛ فحين يمر الخليفة أبو بكر الصديق (رض) بالمدينة يتداعى إلى سمعه صوت جارية تطحن الرَّحى، وتبث أشواقها إلى محبوبها، تقول [4]:

وهويتُـــه مـــن قبـــل قطـــعِ تمـــائمي ... متمايســـــاً مثـــــلَ القضـــــيبِ النَّـــــاعم
وكـــــأنَّ نـــــورَ البـــــدرِ ســـــنةُ وجهـــــه ... ينمـــــي ويصـــــعد فـــــي ذؤابـــــة هاشـــــم

فيرق لها قلب الخليفة (رض)، ويلح على معرفة حبيبها، فتجيبه:[5]

وأنـــــا التـــــي لعـــــبَ الغـــــرامُ بقلبهـــــا ... فبكـــــى لحـــــب محمـــــد بـــــن القاســـــم

فيشتريها (رض) من مولاها، ويبعث بها إلى حبيبها

وهذا غلام يحمله الحنين على الوقوف بديار من يحب، فيتهم باللصوصية، ويّساق إلى الإمام علي كرم الله وجهه، وحين يسأله الخليفة عن قصته يصدقه القول، ويعترف بحبه، فيقول:[6]

تعلّقـــــت فـــــي دار الرِّبـــــاحيِّ خَـــــودَةً ... يـــذلّ لهـــا مـــن حســـنها الشـــمسُ والبـــدر
لهـــا فـــي بنـــات الـــروم حســـن ومنصِـــبٌ ... إذا افتخـــرتْ بالحســـن صـــدَّقها الفخـــرُ
فلمـــا طرقـــتُ الـــدارَ مـــنْ حَـــرِّ مهجَـــةٍ ... أتيـــتُ وفيهـــا مـــن توقُّـــدِها جمـــرُ
تبـــادر أهـــلُ الـــدار لـــي ثـــم صـــيَّحوا ... هـــو اللـــصُّ محتومـــاً لـــه القتـــلُ والأســـرُ

فهو يسرد للإمام قصة غرامه، ويبالغ في إظهار جمال طلعة المحبوبة، لعل مفاتنها تشفع له بالتجرؤ على الاقتراب من الحمى، فلم يكن الفتى ليقدم على الديار لولا لهيب الشوق المستعر في صدره، وهاهو ذا يدفع ثمن

الانقياد لعواطفه، فيطارده أهلها بوصفه لصاً، يستحق الأسر والقتل. لقد كانت أبيات الشاعر صادقة عفوية أثرت في نفس الإمام، فسعى كرم الله وجهه إلى التوفيق بين الفتى وذوي المحبوبة، وزوجهما.

تلك بعض قصص الحب العفيف وأشعاره، حفظتها لنا كتب الأخبار والسير، وهي في معظمها تجسد لوعة الحرمان من المحبوب، وتفصح عن عواطف متأججة فاضت بها نفوس الشعراء حنيناً إلى الأحبة، فانسابت على ألسنتهم شعراً عذبا رقيقاً، ينم على رقة الحس ورهافة الشعور، وقد لمسنا في بعض القصص موقف الإسلام الصريح من الحب العفيف، فوجدنا أولي الأمر يجهدون في تزويج الحبيبين، خلافاً لما كان عليه المجتمع الجاهلي، إذ يحرم الحبيبان فرص الارتباط الزوجي حين يذاع حبهما بين الناس، وفي موقف الخلفاء ما يؤكد سعي الإسلام إلى اجتثاث السنن والعادات التي تحرم الإنسان حقه في الحب العفيف الطاهر، وإحلال القيم والمبادئ التي ترتقي به إلى مستوى الوجود الإنساني الرفيع.

وكان الحنين إلى المحبوبة حالة شعورية تتفجر في نفوس الشعراء حيثما حلوا، وأينما نزلوا، فلا ينفك خيالها يؤرق الشاعر، ويضاعف إحساسه بثقل الغربة، فيبث حنينه حسراتٍ يائسة، يشكو فيها فراق الوطن والمحبوبة؛ فمن جدران السجن في بلاد الروم تتصاعد زفرات فروة بن عمرو الجذامي حنيناً إلى المحبوبة، فينفثها أشواقاً حارة يبكي فيها لوعة الفقد وأسى الاغتراب، يقول:[7]

طرقـــت سُـــليمى مَوْهِنَـــاً فشـــجاني ... والـــــرومُ بـــــين البـــــاب والقريـــــانِ
صـــدَّ الخيـــالُ وســـاءه مـــا قـــد رأى ... وهممـــــتُ أن أغفـــو وقـــد أَبكـــاني

ففي البيتين تتمثل غربة الشاعر الأسير في سجون الأعداء، وهو يصعد الإحساس بثقل الغربة حين يصور طيف الحبيبة يزوره، فيصد عنه مستاء لما يراه من ذل الغربة، فيعمق الإيحاء باليأس والإحباط اللذين يكتنفان ذاته، ويؤرقان ليله.

وتتضاعف حدة الألم في نفسه حين يجتمع الروم لصلبه، فيحس بالمنية تدنو منه، وتقطع كل أمل بلقاء المحبوبة، فيبث الحبيبة شكواه، ويعبر عن أجيج الشوق المستعر في جوانحه، فيقول:[8]

ألا هَـــلْ أَتـــى سَـــلْمى بـــأنَّ حليلَهـــا ... علـــى مـــاءِ عفـــرى فـــوقَ إحْـــدَى الرّواحـــل
علـــى ناقـــةٍ لـــم يَلقـــح الفحـــلُ ظهرَهـــا ... مشـــــــذبةٌ أطرافُهـــــــا بالمناجـــــــلِ

فالاستفتاح (ألا) تعبير عن رغبة الشاعر في نقل أخباره وأشواقه إلى المحبوبة، وهو يوظف صورة الناقة التي لم يلقحها الفحل في تعميق الإيحاء بحرمانه من وصالها، ثم يردفها بالتعبير (مشذبة أطرافها بالمناجل) الذي يؤكد عجزه عن الارتحال إليها، فيجسد بذلك مأساة اغترابه في الأسر، ويوحي بفاجعة القتل التي فرقت بينهما.

وفي البلاد المفتوحة يبدي ورد بن الورد الجَعْدي تذمره من غربة النأي عن بلاده، ويشكو فرقة المحبوبة التي ضنت عليه بالوصال، فيقول:[9]

كـــأنَّ فـــؤادي كلّمـــا خفـــتُ روعـــةً ... مـــن البـــينِ بـــازٍ مـــا يـــزال ضَـــروبُ
ســـما بـــالخوافي واســـتمرَّ بســـاقِهِ ... علـــى الصَّـــيدِ ســـيرٌ بـــالأكف نَشـــوبُ
أَثيبـــي صـــدى لـــو تعلمـــين سَـــقيتِهِ ... ســـقاك غمامـــاتٌ لهـــن دبيـــبُ
هوامـــلَ مـــاءٍ تمتـــريهنَّ ربـــدة ... لمـــا فرَّغـــت مـــن مـــائهن سَـــكوبُ

هنيئـــاً لعـــودٍ مـــن بشـــامٍ تزفُّـــه ... علـــى بَـــرَدٍ شَـــهْدٌ بهـــنَّ مَشـــوبُ
بمـــا قـــد تـــروَّى مـــن رُضـــابٍ ومســـه ... بنـــانٌ كهُـــدّاب الـــدِّمقس خضـــيبُ
فـــــلاو أبيهـــــا إنهـــــا لبخيلـــــةٌ ... وفـــــي قـــــول واشٍ إنهـــــا لَغضـــــوبُ
رمتنـــيَ عـــن قـــوس العـــدوِّ وإنهـــا ... إذا مـــــا رأتنـــــي عازفـــــاً لَخلـــــوبُ

فهو يشبه فؤاده بباز جعل هدفه قنص الطريدة، فلا يزال مضطربا يهاجمها بقدميه، وينشب فيها أكفه حتى يتحقق له مراده، فيمعن في تصوير قلقه واضطرابه، ويضفي على الصورة مزيداً من الوضوح والتأكيد.

والفعل (أثيبي) توسل يفصح عن عمق الحاجة إلى ري ظمأ الحرمان من المحبوبة، تردفه صورة السحاب المثقل بالمياه، فقد شبه ما اسود منه وما ابيض بضرع الناقة الربداء، فبالغ بغزارة الأمطار، وأضفى على الصورة من عنصري اللون والحركة ما زادها جمالاً، وقوى نبض الإيحاء بتعطشه إلى إحياء زمن الوصال.

وكان حنين ورد رغبة جامحة في إشباع رغباته الحسية؛ ولذلك نراه يهنئ عود البشام، فهو يتذوق ريقها، ويحظى بملامسة أناملها، ثم يشبه الأنامل بأطراف ثوب حريري ناعم، ويجعلها مخضبة ليمنحها صفات جمالية تغريه بالحنين إليها، وأشد ما يحزن الشاعر ضنها بالوصال، وسماعها أقاويل الوشاة، ولنلاحظ صيغة المبالغة (خلوب)، فهي تكثف الإيحاء بقدرة المرأة على استمالة الشاعر وإغرائه بحبها.

ويفترق عبدة بن الطبيب عن زوجته خولة، إذ تهاجر إلى البلاد المفتوحة، بينما يجد الشاعر نفسه فارساً من فرسان الفتوحات الإسلامية، يذود في سبيل إعلاء كلمة الدين، لكن الرغبة في أداء الواجب المقدس لا تشغل الشاعر عن الحنين إليها، فنراه يبثها أشواقه معبراً عما يكابده من لوعة الفرقة وحرقة الوجد، ويقول:[10]

هـــل حبـــلُ خولـــةَ بعـــد الهجـــر موصـــول ... أم أنـــت عنهـــا بعيـــد الـــدار مشـــغولُ
حلَّـــت خويلـــةُ فـــي دار مجـــاورةً ... أهـــل المـــدائن فيهـــا الـــديك والفيـــلُ
يقـــارعون رؤوسَ العجـــم ضـــاحيةً ... مـــنهم فـــوارسُ لا عـــزلُ ولا ميـــلُ
فخـــامر القلـــبَ مـــن ترجيـــع ذكرتِهـــا ... رسٌّ لطيـــفٌ ورهـــنٌ منـــكَ مكبـــولُ
رسّ كـــرسٍّ أخـــي الحمّـــى إذا غبـــرتْ ... يومـــاً تأوَّبـــه منهـــا عقابيـــلُ
وللأحبّـــــة أيـــــامٌ تـــــذكّرها ... وللنَّـــوى قبـــل يـــوم البـــين تأويـــلُ
إنَّ الَّتـــي ضـــربَتْ بيتـــاً مهـــاجرةً ... بكوفـــة الجنـــدِ غالَـــتْ ودَّهـــا غـــولُ
فعـــدِّ عنهـــا ولا تشـــغْلْكَ عَـــنْ عَمَـــلٍ ... إنَّ الصَّـــبابة بعـــدَ الشَّـــيْبِ تضـــليلُ

فالاستفهام (هل حبل خولة بعد الهجر موصول) مع أم المنقطعة، يؤديان الغرض في التعبير عن التردد النفسي بين الرغبة في وصال خولة، والواجب المقدس الذي يشغل الشاعر عنها، فقد هاجرت إلى الحواضر، فيها (الديك والفيل)، بينما انضم الشاعر إلى فرسان الفتح الشجعان (لا عزل ولا ميل) نائياً عنها، وهو يشبه ما يكابده من لوعة الذكرى بالحمى، فيبالغ في وصف أشواقه، وتصوير مواجعه، ويجعل نفسه رهناً للمحبوبة كبله حبها فلا تنفك ذكراها تؤرقه (تأوبه منها عقابيل)، ويوظف عبدة اللغة وإيقاعات الألفاظ في الإيحاء بمراده، فجملة (وللأحبة أيام تذكرها) توحي بإيقاعها الهادئ المنساب بالحسرة على الماضي، وما العلامات التي أكدت للشاعر وقوع البين إلا أحداث الإسلام التي حتمت الفرقة بينه وبين زوجته. ولنلاحظ التعبير (غالت ودها غول) وما فيه من تعميق الإيحاء

بيأس الشاعر من وصالها، ولا عجب، فهو جندي من جنود الفتح الإسلامي، يبذل الروح فداء لنشر تعاليمه في الآفاق؛ ولذلك وجدناه يصرف النفس عن الأشواق والمواجد، ويستنكر الصبابة مع الشيب، وكان الشيب رمزاً لتبدل الأحوال التي وجهت اهتمام الشاعر إلى ما هو أجدى وأهم (الدين الإسلامي).

وفي إفريقية يهتاج قلب أبي ذؤيب المقرح بأسى الاغتراب ولوعة الحنين إلى المحبوبة، فنراه يبثها أشواقه معبراً عن حرقة الفراق التي أسقمت فؤاده، يقول:[11]

أمـــن أم ســـفيانَ طيـــفٌ ســـرى ... إلـــي فهـــيَّج قلبـــاً قريحـــا
عصَـــاني الفـــؤادُ فأســـلمته ... ولـــم أكُ ممـــا عنـــاهُ ضـــريحا

وقـــد كنـــت أغبطُـــه أن يريـــعَ مـــن نحـــوهنَّ ســـليماً صـــحيحا
كمـــا تغـــبِط الـــدَّنِف المســـتبلَّ بـــالبُرْءِ تُنبَـــوْه مســـتريحا.

فاستفهام الشاعر (أمن أم سفيان) إقرار بمنزلة المحبوبة وقدرتها على استمالة قلبه، والصفة المشبهة (قريح) توحي بحرقة الوجد وألم الفراق، والفعل (عصاني) يحكي انجذاب القلب نحو الخيال ويعبر عن معاناة الشاعر أصدق تعبير، وما فرح أبي ذؤيب بعودة القلب سليماً إلا مبالغة في تهويل ما يكابده من ضنى الفرقة وسقم الشوق، وهو يشبه غبطته بسلامة قلبه بغبطة المريض الذي برئ من المرض، فيضفي على الصورة مشاعره وأحاسيسه، ويمنحها التألق والوضوح.

والطلاق أحد الأسباب التي تفرق بين الزوجين، وتحرم الشاعر أنس التواصل مع زوجته في كيان أسري يجمعهما وأولادهما، وهو من النظم الاجتماعية التي أقرها الإسلام، وفق شروط تخضع غالبا لاستحالة الحياة بين الزوجين، فكان أبغض الحلال إلى الله عز وجل لما فيه من تمزيق الوحدة الأسرية ؛ وخاض بعض الشعراء في صدر الإسلام تجربة الطلاق بتأثير جملة من الضغوط، حفزتهم على اتخاذ قرارهم السريع في تطليق زوجاتهم، لكن جمرات الحنين المتقدة لا تلبث أن تقض مضاجعهم بلوعة الاغتراب وأنين الفقد، فيبثون أشواقهم حسرات من الندم، تعبر عن افتقادهم الكيان الأسري؛ فعمرو بن شأس الأسدي يطلق زوجته أم حسان بسبب إساءتها إلى ابنه عرار، لكنه ما يلبث أن يحن إليها، فيندم على تسرعه في طلاقها، يقول:[12]

تـــذكر ذكـــرى أم حســـان فاقشـــعرْ ... علـــى دبـــر لمـــا تبـــين مـــا ائتمـــرْ
فكـــدت أذوق المـــوت لـــو أن عاشـــقاً ... أمَـــرَّ بموســـاه الشـــواربَ فـــانتحرْ
تـــذكرتها وهنـــاً وقـــد حـــال دونهـــا ... رعـــانٌ وقيعـــانٌ بهـــا الزّهـــر والشـــجرْ
فكنـــتُ كـــذاتِ البَـــوِّ لمـــا تـــذكَّرتْ ... لهـــا رُبعَـــاً حنَّـــت لمعهـــده سَـــحَرْ
حفاظـــا ولـــم تنـــزَعْ هـــواي أثيمـــةٌ ... كـــذلك شـــأوُ المـــرءِ يخلجُـــهُ القَـــدَرْ

فإحساس الشاعر بخطئه في تطليق زوجته ينبثق من لوعة الفقد وحرقة الحنين، وهو يبالغ في تصوير ما يكابده من أسى، فيجعل عروق حلقه بارزة، حتى إنها تكاد تنقطع إذا ما أمر الموس عليها إمراراً، فيصعد مأساوية الحالة التي وصل إليها، ويوحي بالمعاناة، ويبدو الزمان والمكان عدوين للشاعر؛ إذ يقضي الليل ساهراً يتذكر زوجته فإذا المسافات الشاسعة تفصل بينها، وتحبط أمله في لقائها، وربما كان البعد المكاني رمزاً للعائق الاجتماعي

(الطلاق) الذي يفصل بينهما، ويحرم الشاعر متعة وصالها إلا بعقد جديد للنكاح، على نحو ما تقر النظم الإسلامية، قال الله عز وجل [13]: *((فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حتّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ، فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَاَ أُن يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيَما حُدُوْدَ اللهِ وَتِلْكَ حُدُوْدُ الله يُبيِنُها لقوَمٍ يَعْلَمُون))*؛ ولذلك نرى عَمْراً يصعد تفجعه حين يمثل حاله بحال البقرة التي تذكرت فصيلها، فحنت إلى معهده في الليل، وهي صورة واقعية استمدها الشاعر من وحي الطبيعة ووظفها في الإيحاء بمشاعر الحنين المستعرة بين جوانحه، فهو يرغب في الصفح عن زوجته وإعادتها إلى عصمته، ويحمل الأقدار مسؤولية تصريف أمور المرء والتحكم بمصيره، ويلتمس العذر لنفسه ولزوجته معاً، عله يستعيد معها كيانه ووجوده، ويلبي متطلباته الإنسانية وحاجاته الروحية.

وهذا عبد الله بن أبي بكر (رض) تشغله زوجته عاتكة عن أمور التجارة والصلاة، فيطلقها ملبياً أوامر أبيه الخليفة الصادق، ولكن عواطفه تأبى أن تستكين لحرقة الفراق، ولوعة الحنين، فيصوغ أبياتاً رقيقة تستثير شفقة الأب، وتستميل عفوه، يقول:[14]

يقولـــون طلّقهـــا وأصـــبحْ مكانهـــا ... مقيمـــاً تُمنِّـــي الـــنفسَ أحـــلامَ نـــائمِ
وإنَّ فراقـــي أهـــلَ بيـــتٍ جمعـــتُهم ... علـــى كبَـــرٍ منـــي لإحـــدى العظـــائمِ
أُرانـــي وأهلـــي كـــالعَجول تروّحـــت ... إلـــى بوّهـــا قبـــل العِشـــارِ الـــرَّوائمِ

لقد كان نسيانها والانصراف عنها من قبيل الأحلام التي لم تتحقق للشاعر؛ ولذلك راح يتحسر على فراقها، ويعظم من إثمه في طلاقها مصورا وحدته واغترابه من دونها، وهو يوظف صورة العجول في تعميق المبالغة بافتقاد عطف الزوجة ورعايتها، ويضفي على المعنى الوضوح والتأكيد.

وظل فقد عاتكة يحرك هاجس الحنين في نفس عبد الله، فلا ينفك يتذكرها، ويمتدحها نادماً على طلاقها يقول [15]:

أعاتـــكُ لا أنســـاك مـــا ذرَّ شـــارقٌ ... ومـــا نـــاح قمـــريٌّ الحمـــام المطـــوّقِ
لهـــا منطـــقٌ جـــزلٌ ورأيٌ ومنصـــبٌ ... وخلـــق ســـويٌ فـــي حيـــاء ومصـــدقِ
فلـــم أرَ مثلـــي طلـــق اليـــوم مثلهـــا ... ولا مثلهـــا فـــي غيـــر شـــيء يُطلـــقُ

فنحن نلاحظ في الأبيات رنة الحزن المفعمة بحسرات الندم، فنراه يتودد إليها، ويؤكد وفاءه في مداومة الشوق والحنين، ويضفي عليها صفات مثالية أخلاقية، يمهد بها للإقرار بظلمها، ويوحي برغبته في مراجعتها ولا يتجاهل الخليفة الصادق مشاعر الابن المتأججة تجاه الزوجة، فيسمح للابن بمراجعتها ساعيا إلى إعادة الحياة الزوجية بينهما.

وقد اتجه الحنين إلى الأحبة في بعض قصائد صدر الإسلام اتجاها رمزيا، مثلت فيه المرأة الهدف والطموح والغاية، يتألم الشاعر لنأيها، ويتأجج في صدره الحنين إليها، فيبثها تحياته، ويضمن أشواقه إليها أحلامه وتطلعاته، التي يضيق المقام عن التصريح بها. لقد تحول موضوع الحنين إلى المرأة في هذا الضرب من القصائد إلى أسلوب فني تتسع جزيئاته للإيحاء بالعواطف والأفكار؛ ففي شعر العباس بن مرداس يمتزج الحنين إلى الزوجة بالحنين إلى الذات القبلية، فتضحي الزوجة المشركة رمزاً للزمان الماضي الذي منح الشاعر فرصة التواصل مع القوم والاعتزاز بأمجادهم، فنراه يمهد لإحدى قصائده في الفخر بالحنين إلى المرأة [16] :

تقطّـــع بـــاقي وصـــل أم مؤمَّـــل ... بعاقبـــة واســـتبدلت نيَّـــةً خُلْقَـــا
وقـــد حلفـــت بـــالله لا تقطَـــع القـــوى ... فمـــا صـــدَّقَتْ فيـــه ولا بـــرّت الحَلْفـــا
خفافيـــةٌ بطـــنُ العقيـــق مصـــيفُها ... وتحتَـــلُّ فـــي البـــادين وجـــرةَ فالعُرْفـــا
فـــإن تتَّبـــع الكفـــارَ أمُ مَّؤمِـــلٍ ... فقـــد زوّدتْ قلبـــي علـــى نأيهـــا شـــغفا
وســـوف يُنبِّيهـــا الخبيـــرُ بأننـــا ... أبينـــا ولـــم نطلـــب ســـوى ربِّنـــا حِلْفـــا

فلن يكون شغف المسلم بالمرأة المشركة إلا إيحاء بحنينه إلى الزمان الماضي، وما نقضها العهود إلا تعبير عن تغير الأحوال الذي حرم الشاعر أنس التواصل مع القوم؛ ولذلك نراه يبدي تألمه من الفرقة، ويتتبع منازل بني سليم، مؤكداً التلاحم العضوي بين المكان والتجمع القبلي للقوم، وهو يجسد في البيت الأخير حرقة الوجد وأسى الاغتراب اللذين تمثلا في هجرة الحياة القبلية (فإن تتبع الكفار أم مؤمل)، والانضمام إلى الجماعة الإسلامية ومؤازرة الدين الإسلامي (أبينا ولم نطلب سوى ربنا حلفا).

ويوظف ابن مقبل حنينه إلى المرأة في التعبير عن افتقاده الحياة الماضية، التي منحته فرصة التواصل مع القوم في كيان قبلي واحد، فيصور حاله في إحدى لياليه مثقلاً بالهموم، تنام زوجته، بينما يسهر هو مؤرقاً بالحنين إلى ليلى، يقول:[17]

فـــإن تَـــكُ عرســـي نامـــت الليـــلَ كلـــه ... فقـــد وكلتنـــي أن أصَـــبَّ وأســـهَرا
ألا ليـــت ليلـــى بـــين أجمـــاد عـــاجفٍ ... وتعشـــار أجلـــى فـــي ســـريج وأســـفرا
ولكنمـــا ليلـــى بـــأرضٍ غربيـــةٍ ... تُقاســـي إذا الـــنجمُ العراقـــي غـــوَّرا

فالتناقض الذي يعيشه الشاعر بين امرأتين، إحداهما تعرض عن مشاركته همومه، وأخرى تقاسمه الهموم، لم يكن إلا التناقض بين زمانين (الحاضر عرسي) و(الماضي– ليلى)، ولما كانت ليلى رمز الماضي الذي ولّى وارتحل، وجدنا الشاعر يخلق بينه وبينها مشاركة وجدانية تتحد فيها معاناتهما في النأي والاغتراب، ويحفزه اليأس من التواصل مع الماضي (ليلى) على استذكار أمجاد القوم الغابرة، في محاولة لاستعادة ماضي الذات القبلية، الذي يشبع حنين الشاعر، ويخفف عنه لوعة حرمانه.[18]

وتستنكر صاحبة عمرو بن أحمر الباهلي بعده عن بلادها، فتصد عنه، وتعرض عن مواصلته؛ لأنه يتمسك بالحياة القبلية في البادية:[19]

أزرى بوصـــــل الحارثيـــــة أنهـــــا ... تنـــأى ويحـــدث بعـــضُ مـــا لـــم نعهَـــدِ
قالـــت لنـــا يومـــاً بـــبطن سَـــبوحَةٍ ... فـــي موكـــب زجـــل الهـــواجرِ مُبْـــرِدِ
يـــا جَـــلَّ مـــا بعُـــدَتْ عليـــك بلادُنـــا ... وطلابنـــا فـــابرق بأرضـــك وارعُـــدِ
لـــو كنـــت بالطَّبْســـين أو بأُلالـــةٍ ... أو بَـــرْبَعِيْصَ مـــع الجنـــانِ الأســـودِ
ملســـى يمانيـــةٌ وشـــيخٌ همَّـــةٌ ... متقطِّـــع دون اليمـــاني المُصْـــعِدِ
وجـــرت لهـــا طيـــرٌ فيزجـــر صـــاحبي ... وأقـــولُ هـــذا رائـــدٌ لـــم يُحمـــدِ

فما يفرق بين الشاعر والمحبوبة النأي ومستجدات الحوادث التي لم يعهداها من قبل، ولن تكون تلك المستجدات إلا النظم الإدارية التي أقرت هجرة الأعراب من الأمصار، وحالت دون تواصل الشاعر مع أهله وقومه، وهو يدير الحوار على لسان المرأة (يا جل ما بعدت عليك بلادنا)، فيظهر استياءها من التزامه الإقامة في بلاده. ولنلاحظ قولها (فابرق بأرضك وارعد)، وما في إيقاعات الألفاظ من إيحاء بقلة اكتراث المرأة بالشاعر، بل بالرغبة في ابتعاده، إلا أن ابن أحمر يرى الفرقة أمراً محتوماً لا علاقة له بالمسافات المكانية التي تفصل بينهما، وهذا ما أوحى به قوله (هذا رائد لم يحمد). هكذا تكون المرأة في شعر عمرو وسيلة فنية تفسح له مجال الإفصاح عن مواقفه المعارضة للهجرة إلى الأمصار، وكان عمرو أعرابياً متمسكاً بالبداوة وشظفها ونظم الحياة القبلية فيها.

ومثّل الحنين إلى المرأة في بعض القصائد حنين بعض الشعراء إلى تحقيق أهدافهم الذاتية، إذ منحهم الماضي حرية السعي إليها بيسر وسهولة، فأمامة تتحول في شعر الحطيئة إلى رمز لحياة الخصب والاكتفاء في الماضي، فقد كان الشاعر يسعى إلى التكسب بالشعر، ويتيح لذاته فرص التعويض عما يعانيه من اضطهاد في مجتمعه، يقول في إحدى مدائحه في الخليفة عمر بن الخطاب (رض) [20]:

نأتـــــــك أمامـــــــةُ إلا ســـــــؤالا ... وأبصـــــرتَ منهـــــا بغيـــــبٍ خيـــــالا
خيـــــالا يروعُـــــك عنـــــد المنـــــام ... ويَـــــأبى مـــــع الصُّـــــبح إلا زوالا
كنانيـــــــةٌ دارُهـــــــا غَرْبـــــــةٌ ... تجـــــدُّ وصـــــالا وتُبلـــــي وصـــــالا
كعاطيـــــة مـــــن ظبـــــاء السَّـــــليل ... حسّـــــانةِ الجيـــــدِ تُزجـــــي غـــــزالا
تعـــــاطى العضـــــاه إذا طالهـــــا ... وتقـــــرو مـــــن النبـــــت أرطـــــى وضـــــالا
تصـــــــــيَّفُ ذروة مكنونـــــــــةً ... وتبـــــدو مَصـــــاب الخريـــــف الحبـــــالا
مجـــــــاورةً مســـــــتحيرَ الســـــــرا ... ة أفرغـــــت الغـــــرُّ فيـــــه السِّـــــجالا
كـــــــأنَّ بحافتـــــــه والطِّـــــــراف ... رجـــــالا لحميـــــرَ لاقـــــت رجـــــالا

فأمامة رمز الحياة الماضية التي قضاها الحطيئة متنعما بتحقيق أهدافه؛ ولذلك نراه يمنحها القدرة على العطاء (تصل، تبلي)، ويسبغ عليها صفات الخصب والجمال والترف، فيصف لنا حسن جيدها، ويصورها أماً تسوق غزالاً وترعاه، ولعل في صورة الأمومة ما يلبي حاجة نفسية داخل الشاعر المحروم نعمة الحياة الأسرية المستقرة، فلا ننسى أن الحطيئة كان منبوذا لدمامته ووضاعة نسبه، ثم إنه قضى حياته مرتحلا في سبيل التكسب، ولا شك أن حياة هذه شأنها تحول دون العيش المستقر في كنف الأسرة، ثم يصفها ترتعي في أماكن مخصبة، تنعم بالترف، فتقضي صيفها في الذرا، وخريفها في حبال الرمل، وتجاور غديرا غزير المياه، ويوظف الكناية (أفرغت فيه الغر السجالا) في تعميق الإيحاء بالخصب، ويردف الكناية بالتشبيه، فيشبه ما يحيط بحافتي الوادي والبيت من أزهار ببرود تجار حمير المزركشة ، ويجسد من خلال صور الخصب والترف الجزئية افتقاره إلى الحياة المترفة ،ويؤكد رغبته في الارتحال إليها على ناقة تتحمل مشقات الطريق ووعورتها ،ولم تكن تلك الرحلة الشاقة إلا مغالبة الحطيئة النفس على التخلي عن الهجاء، والالتزام بالمديح، ضمانا لاستعادة أمامة (الحياة المخصبة).

ويعيش الشماخ تجربته الذاتية في الحرمان من المرأة، إذ تنفر منه النسوة لدمامته، وعوره، ويغدر بعضهن به تاركات الشاعر يكابد جراح الرفض وألم الاغتراب؛ ففي القصيدة التي يعارض فيها الشماخ لامية كعب بن زهير،

تبدو سعاد رمزا للحياة الأسرية التي يفتقدها الشاعر؛ ولذلك نراه يلتقط من واقع البيئة صورا جزئية موحية برغباته وتطلعاته ،يقول:[21]

بانـــت ســـعادُ فنـــومُ العـــين مملـــولُ ... وكـــان مـــن قصـــرٍ مـــن عهـــدها طـــولُ
وحـــال دونـــك قـــوم فـــي صـــدورهم ... مـــن الضَّـــغينة والضـــبِّ البلابيـــلُ
وقـــد تلاقـــى بـــي الحاجـــاتِ دوســـرةٌ ... فـــي خلقهـــاعن بنـــات الفحـــلِ تفضـــيلُ
تـــهوي بـــها مُـــكْرَباتٌ فـــي مرافقهـــا ... فتـــلٌ صِـــيابٌ مياســـيرٌ معاجيـــلُ
يـــدا مهـــاةٍ ورجـــلا خاضـــبٍ سَـــنِقٍ ... كأنـــه مـــن جَنَـــاهُ الشَّـــريَ مخلـــولُ
تروَّحـــا مـــن ســـنامِ العِـــرقِ فالتبطـــا ... إلـــى القِنـــان التـــي فيهـــا المـــداحيلُ
إذا اســـتهلا بشـــؤبوب فقـــد فُعلـــت ... بمـــا أصـــابا مـــن الأرض الأفاعيـــلُ
فصـــادفا الـــبَيضَ قـــد أَبْـــدَت منـــاكبَها ... منـــه الرِّئـــالُ لهـــا منـــهُ ســـرابيلُ
فنكَّبـــا ينقفـــان البـــيضَ عـــن بَشَـــرٍ ... كأنـــه ورقُ البســـباسِ مغســـولُ
ثـــم اســـتمرا بحـــفَّانٍ لـــه زجـــل ... كـــالزَّهو أرجلُهـــا فيهـــا عقابيـــلُ

فالإحساس بطول الزمان تعبير عن المعاناة ،وإيحاء بالحاجة إلى المرأة ،وهو ينفث غضبه فيحمل ذوي الحقد والضغينة مسؤولية فشله في الحظوة بها ،فقد عانى الشماخ غدر الأهل، وتجرع مرارة خيانة النسوة ،فلا عجب أن يعبر عن حنينه إلى حياة زوجية مستقرة ، ويسعى في الحياة من أجل تحصيل الرزق وإثبات المقدرات.

وكانت الناقة معادلا فنيا للشاعر عبأها طموحاته وأحلامه ،وأوحى من خلالها بمشاعره وأحاسيسه فرصد التشابيه الحسية ،ووظفها في أداء الفكرة وتطوير المعنى ،فمن واقع الحياة الصحراوية يلتقط صورة الظليم والنعامة، ويصوغها صياغة فنية متقنة تنم على براعة في الوصف وقدرة على إسقاط المشاعر على الموجودات البيئية، فهو يصف ساقي الظليم المحمرتين، ويوحي بحاجته إلى إشباع رغباته الجنسية، (فالخاضب هو الظليم الذي اغتلم فاحمرت ساقاه)،[22] ثم يشبه سيلان لعاب الظليم بالفصيل المخلول عن الرضاع، فيشبع فكرة الحرمان في نفسه، ثم نراه يترصد خطوات الظليم والنعامة، فيصورهما يجدان في الركض إلى البيض، ويخلق الشاعر بين الاستعارة (استهلا بشؤبوب) والسرد اللغوي الموحي (فقد فعلت بما أصابا من الأرض الأفاعيل) لحمة فنية تعمق المبالغة بلهفتهما إلى البيض، وتعبر عما في نفس الشاعر من تحفز إلى ممارسة هذا الضرب من النشاط الأسري المفعم بالمشاعر والأحاسيس الصادقة. وإذا علمنا أن الظليم والنعامة يتفردان عن سائر الحيوانات في التناوب على احتضان البيض، أدركنا دقة اختيار الشاعر للمشبه به، وعرفنا سر تفصيله في جزئياته، فها هو يصور الأبوين يصلان إلى البيض، ويجدان الرئال قد انشق، فيجهدان في تقشيره حتى يمكنا الفراخ من الخروج إلى الحياة.

لقد كان الشماخ يفتقر إلى تلك الحياة المصطخبة الزاخرة بالعواطف الرقيقة الشفافة التي تمتن الروابط الأسرية، وتمنح الحياة فرص التجدد والاستمرار؛ لذلك راح يضفي على الفراخ صورة جمالية خاصة، يرصدها باللون والحركة والصوت، لتكون أملا يشرق، وحياة تتجدد، تعبر عن تطلعات الشاعر وتوحي بأمنياته المفتقدة.

الخاتمة:

لقد كان الحنين إلى الأحبة في شعر صدر الإسلام تجربة وجدانية، جسد الشاعر من خلالها أنبل العواطف،فبكى فراق المحبوبات والزوجات، وأبدى تألمه للحرمان من المرأة، في صور رمزية إيحائية تحكي حنينه إلى المفتقدات.

ففي ظل بعض الظروف الاجتماعية والذاتية عانى بعض أصحاب الحب العفيف مرارة الفقد، وتكبدوا مشقة الفراق، فقد لوّع مالك بن الصمصامه الجعدي بفقد محبوبته، وحرم الفقر عروة بن حزام من الزواج بابنة عمه عفراء، وتسببت بعض التقاليد الاجتماعية التي تمنع زواج الحبيبين متى اشتهر حبهما في التفريق بين العاشقين، فبكى الشعراء الفراق، وعبروا عن تذمرهم من قسوة الظروف التي تعيق فرص الارتباط الزوجي بالمحبوبات، وبثوا عواطفهم في أبيات عفيفة تنم على صدق التجربة ورهافة الشعور، وقد بينت بعض القصص والتجارب حرص الإسلام على الارتقاء بالعواطف إلى مستوى العلاقة الزوجية التي يقرها الشرع الإسلامي.

وكان الاغتراب في السجون والبلاد المفتوحة كفيلا بتأليب المواجع، واستثارة حنين بعض الشعراء إلى محبوباتهم في الوطن، فراحوا يرسلون أشواقهم آهات حزينة، تتحسر على الفراق، وتبكي ذل الاغتراب بعيدا عن الأحبة في الوطن .

والطلاق أبغض الحلال إلى الله تعالى، وقد أقره عز وجل حين يستحيل الوفاق بين الزوجين، وبفعل وطأة الانفعال والغضب تسرع عمرو بن شأس الأسدي في طلاق زوجته، لكن حنينه إلى الحياة الأسرية حفزه على استعادتها، وطلق عبد الله بن أبى بكر (رض) زوجته بأمر من الخليفة أبي بكر (رض)، ولازال يعبر عن لواعج الشوق والحنين حتى رق قلب الخليفة، فأمره (رض) بمراجعتها .وقد صاغ الشاعر أشواقه ومواجده إلى المحبوبة والزوجة في سرد شعري معبر، تعج ألفاظه بلوعة الفقد وأسى الاغتراب، وتتدافع تعابيره في الإيحاء بالمواجد والأشواق.

ووجد بعض الشعراء في الحنين إلى المرأة مجالا رحبا للتنفيس عن أحاسيس الفقد والحرمان في نفوسهم، فاتخذوها رمزا لجملة من المفتقدات، فكانت أنموذجا فنيا ، تعددت معانيه الإيحائية، وتنوعت صوره الرامزة التي استقى الشاعر بعضها من واقع البيئة، واستعان في بعضها الآخر بالمخيلة الشعرية ،ثم أخضعها لأفكاره، فجاءت معبرة موحية بالمشاعر والأفكار.

الإحالات:

(1) – معجم البلدان 335/1 (بُتر) وهو مالك بن الصمصامة بن سعد الجعدي من عامر بن صعصعة، شاعر بدوي إسلامي، مقل، هوى جنوب بنت محصن الجعدية، (الأعلام 137/6)، وانظر سمط اللآلىء 485/1.

(2) – ديوان عروة بن حزام 37–41 و44–45، وهو عروة بن حزام بن مهاجر الضبي، من بني عذرة، توفي 30هـ، (الأعلام 17/5)، وانظر الشعر والشعراء 622/1. تفدحي:تثقلي

(3) – شاعرات العرب 189.وهي عفراء بنت مهاصر بن مالك من بني ضبة بن عبد، شاعرة عذرية، (الأعلام 34/5)، وانظر الشعر والشعراء 622/2.

(4) – روضة المحبين ونزهة المشتاقين 300.

(5) – روضة المحبين ونزهة المشتاقين 300، ومحمد هو ابن القاسم بن جعفر بن أبي طالب، المصدر نفسه 300.

(6) – روضة المحبين ونزهة المشتاقين 301.

(7) – أدباء السجون 34، وهو فروة بن عمرو بن النافرة من بني نفاثة،من جذام، كان أميراً قبل الإسلام، أسلم في عهد النبوة، فعلمت حكومة قيصر به، وسلطت عليه الحارث السادس أو السابع بن أبي شمر الغساني، فاعتقله، وصلبه بفلسطين، توفي 12هـ، (الأعلام 34/5)، وانظر البداية والنهاية 86/5.

(8) – أدباء السجون 34.

(9) – الأمالي 60/2، ولم نجد لورد بن الورد الجعدي ترجمة.

(10) – شعر عبدة بن الطبيب 57–59.وهو يزيد بن عمرو بن وعلة بن أنس بن عبد الله بن عبد نهم بن جشم بن عبد شمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم. توفي 25هـ، (الأعلام 322/4)، وانظر ديوان المفضليات بشرح الأنباري 268.

(11) – شرح أشعار الهذليين 196/1 – 197، وهو خويلد بن خالد بن محرث من بني هذيل ابن مدركة، من مضر، شاعر فحل، مخضرم، (الأعلام 373/2) وانظر الشعر والشعراء 653/2.

(12) – شعر عمرو بن شأس الأسدي 82 – 83، وهو عمرو بن شأس بن أبي بُلَي، واسمه عبيد بن ثعلبة بن ذويبة بن مالك بن الحارث بن سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة، شاعر جاهلي مخضرم،أدرك الإسلام وأسلم،توفي 20هـ، (الأعلام 247/5)، وانظر طبقات فحول الشعراء.190/1.

(13) – البقرة 230.

(14) – نسب قريش 277/8.

(15) – تزيين الأسواق 130/1.

(16) – ديوان العباس بن مرداس 114،.وهو العباس بن مرداس بن أبي عامر بن حارثة بن عبد قيس بن رفاعة بن الحارث بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة، توفي 18هـ، (الأعلام 39/4)، وانظر الاستيعاب 817/2. النية: ما ينويه الإنسان من وجه ويقصده، خفافية: نسبة إلى بني خفاف حي من سليم، العقيق: وادٍ بالمجاز، ووجدة والعرف، موضعان: الشغف أن يبلغ الحب شغاف القلب وهو حجابه

(17) – الديوان 137.وهو تميم بن أبي بن مقبل بن عوف بن حنيف بن قتيبة بن العجلان بن عبد الله بن ربيعة بن كعب بن عامر بن صعصعة، توفي 37 هـ، (الأعلام 71/2) وانظر طبقات فحول الشعراء 143/1.

عاجف: موضع في شق بني تميم مما يلي القبلة، الأجماد: جمع جمود وهو الأكمة الصغيرة، وتعشار وسريج وأسفر أسماء مواضع.

(18) – ينظر الديوان 137–141.

(19) – شعر عمرو بن أحمر الباهلي ص 54–55، وهو عمرو بن أحمر بن العمرد بن تميم ابن ربيعة بن حرام بن فراص بن معن الباهلي، وكنيته أبو الخطاب، توفي 65هـ، (الأعلام 237/5)، وانظر طبقات فحول الشعراء 571/2.

(20) – ديوان الحطيئة 214. ، وهو جرول بن أوس من بني قطيعة بن عبس، توفي 45هـ، (الأعلام 110/2)، وانظر الشعر والشعراء 322/1. العاطية التي تناول بظلفها الغصن إذا ارتفع عنها، والسليل الوادي ينبت الطلح،المكنونة المصونة، المستحير: الغدير الذي يتحير فيه الماء، الغر السحاب، الطراف: بيت من أدم.

(21) – ديوان الشماخ 271–272 و277– 280، ، والشماخ هو ابن ضرار بن سنان ابن أمامة أحد بني سعد بن ذبيان ، توفي 22هـ، (الأعلام 252/3–253)، وانظر طبقات فحول الشعراء 123/1. الضب الغيظ والحقد، والجمع ضباب، البلابيل جمع بلبال وهو شدة الهم والوسواس في الصدر، مكربات مشدودات، صياب: لا تحيد عن القصد، السنق: الشبعان كالمتخم، مخلول: في فمه خلال، إذا استهلا بشؤبوب: إذا اشتد عدوهما، بشر:جمع بشرة، البسباس: نبت طيب الريح، الحفّان: فراخ النعام وصغارها، العقابيل: قروح صغار تخرج بالشفة من بقايا المرض

المراجع:

.....

1. القرآن الكريم
2. أدباء السجون، عبد العزيز الحلفي، دار الكاتب العربي، بيروت.
3. الاستيعاب في أسماء الأصحاب، أبو عمر يوسف عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة نهضة مصر.
4. الأعلام، خير الدين الزركلي، بيروت ط3 1970م.
5. الأمالي، أبو علي القالي،تحقيق محمد عبد الجواد الأصمعي، مطبعة السعادة، مصر ط3، 1373هـ-1953م.
6. البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي، مكتبة المعارف، بيروت، مكتبة النصر، الرياض، ط1 1966.
7. تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق، داود الأنطاكي، وبهامشه ديوان الصبابة شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة المغربي، المطبعة البهية المصرية 1302 هـ.
8. ديوان ابن مقبل ،تحقيق د عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق 1381 هـ - 1962 م
9. ديوان الحطيئة، تحقيق نعمان أمين طه، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط1، 1378هـ - 1958 م
10. ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، تحقيق وشرح صلاح الدين الهادي، دار المعارف، مصر 1968م .
11. ديوان العباس بن مرداس السلمي، جمع وتحقيق د يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1412هـ-1991م .
12. ديوان عروة بن حزام، جمع وتحقيق وشرح أنطوان محسن القوال، دار الجبل، بيروت، ط1، 1416هـ - 1995م .
13. ديوان المفضليات، أبو العباس محمد بن المفضل الضبي، شرح أبي محمد القاسم ابن محمد بن بشار الأنباري، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1920.
14. روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزية، فسر غريبة وشرحه، صابر يوسف، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1402هـ- 1982م .
15. سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، أبو عبيد البكري الأوبني، تحقيق عبد العزيز الميمني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1354هـ - 1936م.
16. شاعرات العرب في الإسلام، جورج غريب، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1985م
17. شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، محمود شاكر، دار العروبة، القاهرة، 1384هـ-1965م.
18. الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، د محمد النويهي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.
19. شعر عبده بن الطبيب، د يحيى الجبوري، دار التربية للطباعة والنشر، بغداد،1391هـ-1971م.
20. شعر عمرو بن أحمر الباهلي جمع وتحقيق د حسين عطوان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق.
21. شعر عمرو بن شأس الأسدي، د يحيى الجبوري، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، العراق 1976.
22. الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ط2، 1386هـ-1967م
23. طبقات فحول الشعراء ابن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، مصر 1400هـ - 1980م.
24. لسان العرب، ابن منظور، تقديم أحمد فارس ، دار صادر، بيروت، ط2، 1300هـ.
25. معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت 1376هـ-1957م .
26. نسب قريش، المصعب الزبيري، تصحيح ليفي بروفنسال، دار المعارف للطباعة والنشر، القاهرة 1951م.